مولد المأساة

BIRTH OF TRAGEDY

وردتنا في اوائل الصيف مقالتان في موضوع عني بطرقه أدباؤنا وهو الادب الاغريقي فقدمنا مقالة نشأة المسرح الاغريقي (مقتطف أكتوبر ١٩٣٢) على مقالة مولد المأساة لانها أعم وتهم الثانية بعد مطالعة الاولى أقرب منالا

اشتهر فردريك نيتشه الفيلسوف الالماني المعروف بموضوعين ، قتلهما بحثاً وتنقيباً ، هما الادب الاغريقي وفلسفة الاجتماع . استغرق تأليفه في القسم الاوّل سبع سنين من حياته وتمتاز مؤلفاته في هذه المدة بصفتها الكلاسيكية الفلسفية الصبغة . من اهم تلك المؤلفات واشهرها : مولد المأساة : طبع هذا الكتاب سنة ١٨٧٢ واضاف اليه مقدّمة خطيرة سنة ١٨٨٦ تطلعنا به في ابحاث الادب الاغريقي ، وابرز من رواياها خبايا الحقائق في التاريخ وفي الفن . فجلّى الاصول التي منها نشأت المأساة ، والاطوار التي تعاقبت عليها

الالهان : ديونيسيوس وأبلون

هنالك كمنان هما مفتاح مؤلفات نيتشه الاغريقية ، وكثيراً ما تردّدنا في كتاباته ، وفيهما الكشف عن اصل المأساة وهما ديونيسيوس وأبلون الاول اله الخمر والمرح ورقق الشباب . والثاني اله الفن والتعبّد والتحسّن . والنسبة اليهما الديونيسيّة والابلونيّة . تمثّل الاولى الهمة الوثّابة في عالم الطرب والمرح ، عالم الموسيقى والاغاني والرقص والخلاعة والحركات المعربة عما انطوت عليه الاضالع من الانفعالات الغرامية والجونية ، المتحكّمة في النفس في شرخ الصبا . وتمثّل الثانية جمال الجنس وتقاوته ورصانة الطلعة والوقار . شرحهما فوجيه في كتاب خاص قال :—

هنالك جنس أحبّ الجمال والحياة دون ما سوى . واختصّ بحبه الحياة والقوّة والتفوّق والمرح . يُدّعى الاغريق في هذه الاشياء : النفس الديونيسية : لكن ذلك الجنس احبّ ايضاً الجمال والطهارة والاتزان والتقوى . ذلك ما ندعوه : النفس الابلونية

اقترنت هاتان الرغبتان في ادراك الاولمبيا . والاولمبيا معنى الكائنات السامية المالكة القدرة والجمال ، المتميّزة بتأكيد خلودها — بارادة الحياة — والخلود كلمة فقدت قوّتها لكثرة التكرار . فهي تعني عدم الشبع من الحياة ، والرغبة في دوامها الى الابد . ولما كانت تلك الكائنات مسرورة ايضاً بالجمل ، وهي تتأكّد جمالها ، وتروم دوامه كان الاولمبيّ ذلك الشخص الذي في نفسه كلتا الصفتين ، الديونيسية والابلونية . فالفن الابلوني مثال النظام والتعمق والارتكاز . والفن الديونيسي مثال الموسيقى المرتبكة ، مثال الانفعال . وقد عرفنا اتجاه كلّ

منهما ضد اخيه. على انهما اقترنا اقتران الزوجين على ما فيهما من تضاد فوفقا في انتاج انجب المواليد. فذا بينهما جسراً هو فن المأساة. فالعبقرية الهيلينية هي اجمعها فولادتهما المأساة. وكيف ذلك؟ تشبه الابلونية بحلم الجمال، والديونيسية بحال السكر. فنرى في اثور مثالاً الهياً عجيباً. وصفهُ شوبنهور وصفاً شعريًّا تصويريًّا قال: — رعية مخيفة تملك على المرء شواعره فتقدره ذاهلاً جامداً كالصخر الاصمّ لاحسّ ولا نفس. فيحسب الذهن في اوضح ظواهراته حالة استثنائية بازاء ما حصل في نفسه من الغيبة الساحرة التي بلغت عمق اعماق وجوده. اضف الى ذلك رعبة الذهول الذي الناشيء عن الانفعال الحاصل في قرارة النفس. اذ يشعر الذاهل بتقدم وجودهُ الفردي المستقل فكأنهُ اصبح جزءًا من اللامتناهي. هذا هو موقف المرء امام ابلون

في ثمرة هذا الاختبار الفريد تقع العين على الكائن الديونيسي الذي يمثل حالة السكر والهول، الذي يستولي على العقل، اما تأثير مجالي الربيع وظاهرات شواعر النفس لتهيام، والثورة على الهدوء والجمود، او بتأثير المخيات، كما روت لنا ذلك اشعار الاقدمين والمحدثين. فبهذا وبذلك تبعث النفس امواجاً من الحبور والبهاء فتستيقظ عواطف الديونيسي في غيبة تزول عندها الذات. بعد ما تبيّن القارىء المراد بالديونيسية والابلونية يتقدم نيتشه ليسط الكلام في الموضوع. قال: —

كان الفن الاغريقي والتمدن الاغريقي، على ما نعلم، ابلونيًّا والهيًّا. والمأساة عندهم قرينة الديانة ووليدتها. ادخل اليهم البيزيقيون ديونيسوس اله الخمر. فتشبثوا اليه باخس وغيره من الآلهة، مع ابلون اله الشمس واخته ديانا الاهة القمر. وكان خدامه (الكهان) يلبسون جلود الذبائح المقدمة له في الحفلات والاعياد. وهؤلاء هم الساتيريون — جمع ساتير — وساتير مخلوق خرافي عندهم نصفهُ انسان ونصفهُ تيس (ذكر في التوراة مع الاشارة الى ما كان يجري في تلك الحفلات الدينية من الرقص التمثيلي بجلود المعز. جاء في اشعياء ص ١٣ عدد ٢١: بل تربض هناك وحوش القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام، وترقص معز الوحش: فمعز الوحش ساتير الذي كان يمثله عباد باخس) اقول، كان الكاهن او صديقه يلبس جلد التيس متنكراً كأنهُ يمثل ساتيرًا ويرقص ورئيسهم منشداً اغاني باخس اله الخمر المعروف، ويونيسيوس زميله ومثيله. ويقال ان آلهة المأساة اربعة هم ديونيسيوس وباخس وابلون وديمتريوس. وان المأساة من اصل خريّات باخس. نشأ ذلك في نحو القرن السادس قبل المسيح. فيقف الشاعر على منصة عالية ليراه المحيطون به، ويقف معهُ الكاهن او الزعيم. فيشرع في تلاوة الاغاني، او الالقاء، وزعيم المرنمين يتلقى منهُ ذلك في صورة محاورة تشتمل على اساطير الاولين والكائن في الوسط. والمرنمون يحيطون به في شكل نصف دائرة تجاه

المديح . وقد اضاف (ثيسبس) القناع الى هذه الهيأة والمقصود منهُ اخفاء حقيقة الممثل عن العامة فكانوا يحسبون «ساتير» وممثله واحداً

بدأ هذا الطقس المقدس عندهم — على ما روى نيتشه — اورفيوس او بروميثيوس ، الذي سرق نار الآلهة من السماء ، وهبط بها الى الارض . فأضرم في صدور الاغريق تلك الجذوة التي اضرمت اوربا والعالم . وهي مثل نار (هورمزد) التي لا تطفأ . اقول : كان ذلك الفن الالهي الرسين يملأ فراغ النفس في العهد الدوري والابلوني والاتكي . فيقود الشعب الى مظاهر الورع والتعبد ومراسم الخشوع والتأدب . ففاجأه في المشهد ديونيسوس الموسيقي المرح . اراد نيتشه ان يقول انه طرأ على المسرح الديني روح علمانية تخاطب نفوس الشبان بلا استئذان ، فتخلب الالباب وتستلب اثمن ما ذخر في مخابىء الحياة . فراع العنصر الابلوني ذلك وحسب اصحابهُ لهُ أي حساب . هذا كان موقف الديونيسي والابلوني في مسرح باخس . وما عتم ان اقترنا اقتران الذكر والانثى فولدا الفن السامي ، وخرجات باخس ، والمأساة . هذه هي ذرية الهي الفن . فقد توّج قرانهما بالاعجاد بعد معارك طاحنة ختمت بميلاد انتيغون وكندرا . كان الوسط التاريخي والمسرحي مسقط رأس المأساة في حفلات باخس ، الذي ترى صورته في الآثار اليونانية طفلاً يلوذ بأمه او بالكرمة . وهو لا يريد ان يدرك من الحياة سوى معنى المرح والاستسلام البريء . وكان المرتجون ينشدون الترانيم المنطوية على التسبيح والتعظيم والعامة يحسبون «ساتير» شخصاً حقيقياً . وذلك يعرب عن اميالهم الفطرية للحرية والتصوف ، والرغبة في الحياة بحسب الفطرة ، على اكثر مما عناه جان جاك روسو لما ارسل نداءه الذي هزّ به اوربا قائلاً : عودوا الى الطبيعة :

استمال ممثلو «ساتير» ألباب الاغريق الذين كانوا يحبون ان يروا الآله في شخص الممثل المقنع . في وسط تلك الهيأة المسرحية بدأ فريفيخس المأساة . ومن ابطالها الاولين اسخيلس سنة ٥٢٥ ق . م . وصفوقليس سنة ٤٩٥ ق . م . ومن قبلهما ثيبس مستنبط القناع

كان هسيودس الشاعر اشد الابلونيين نظراً . ودونه في ذلك هوميروس الساذج (وكلة ساذج هذه من مخرجات الشاعر شلر الالماني الشهير . ومعناها الاصلي على الفطرة) وكان ممثل العنصرين الابلوني والديونيسي ، ارخيلاوس الشاعر الغنائي . ثم تلاءمت الابلونية والديونيسية ، فجمعتا بين النفس الديني ورغبة الانسان الفطرية في المرح والسرور . وليس الامر خيالاً عند الديونيسي . لانه كشاعر يرى التطبيق في اول مراتب الشأن . وهو يرمي الى تجلية حقيقة الحياة بآلامها وتقاليدها . والشعر اليوناني القديم يرمي الى الحقيقة دون الخيال . فأنشأ الشاعر الديونيسي يجلي هذه الحقيقة وهي نقطة تحوّل في حياة المأساة . بها تخرج من طور الى طور . وقد حمي الوطيس بين اسخيلس وصفوقليس في اي التفسيرين احدر بالاتباع

وآراء نيتشه ثقة في هذا الباب في أواخر القرن التاسع عشر . فأبان ان المأساة عنيت اولاً بديونيسيوس الذي ظهر في المسرح (اي اكثر من عنايتها بابلون)

تمام الانتقال

اجتمعت العناصر الآتية الذكر . الابلونية ، والديونيسية ، وحفلات بخس ، والتمثيل الديني ، ورخيات العامة القطرية ، وبقيت حلقة واحدة بها تتم ولادة المأساة . تلك الحلقة هي: تحويل التمثيل من السعي الى النفاني : ومن ديني الى علماني : والذي قام بهذه الحلقة هو يوريبيدس ، استاذ سقراط . هذا عرض اولاً على المسرح روايات تنطوي على احوال الحياة اليومية . فأخذت الآلهة المسرح للناس . والبشر تقهرون اولاً وآخراً . فيؤثرون مصالح الحياة اليومية على شؤون الآلهة . فكان امراً طبيعيًّا التفاتهم الى التمثيل المسرحي العلماني ، شأن التاريخ في كل ادواره ، يبدأ في السماء وينتهي على الارض ، يبدأ في جنة عدن وينتهي في الشوك والحسك خارجاً . يبدأ في مقبّب اتفلك بين الآلهة والالاهات وينتهي على ضفاف الانهار وفي الاخبار والاغوار . يبدأ في عالم الشعور والاحلام وينتهي في تقرير الواقعيات . ذلك ما حدث للمسرح بزعامة يوريبيدس . على ان التطور في الدراما كما في غيرها من حلقات سلسلة الارتقاء لم يتم الا تدريجاً . ومع ان المأساة لم تصر ابلونية لا يمكننا حسبانها ديونيسية صرفة . فهي طبيعة فنيّة

جاء سقراط اثينا فاذهله اندفاع الناس وراء الحسيات بالحواس القطرية . وفي كلمة فطرة نفس اتجاه سقراط ولباب فلسفته . فنقد سقراط تلميذ يوريبيدس الفن الفاشي باثينا ، كما نقد الاخلاق والميول السائدة . وحيث اتجهت السقراطية تبينت نقص الاخلاق وسيادة الاوهام . فرأت من ذلك زيغ الاحوال وفسادها . ورسخ في نفس سقراط انه رسول الاصلاح العظيم . فدخل المعمعان اعزل ، يدفع عن مصلحة الامة والفن لتحريرهما من فساد الشهوة والبطر

قال نيتشه : يسودنا التردُّد بديهة في امر سقراط . فمن هو هذا الاعزل الذي يرمي الى قلب العبقة الاغريقية ومن ابطالها : هوميروس وديونيسيوس واسخيلس وفيدياس وبركليس وبيثا ويندار اسمى ابطال — الاغريق وابعدهم غوراً . افيستحق سقراط هذا الاتجاه ؟ ويل ويل لك يا سقراط ! فقد حطّمت الفن الجميل بلكمة واحدة ولا يزال العالم مكبلاً بالثقافة السقراطية التي نقلتها الينا الثقافة من الاسكندرية . وآثار سقراط بادية في كل ما تعتمد اليه ايدينا . وان من تصوّر ذلك يصرخ قائلاً : — ما اعظم ديونيسيوس في وسطك ايها الجنس الهيليني : فيردُّ عليه شيخ توّج الشيب هامته : — بل قل ايها الاجنبي ما اعظم ما تحمّل هذا الجنس من الآلام حتى ابرز ذلك الجمال . ولكن اتبعني الى تمثيل المأساة ، وشاركني في التضحية في هيكلي